

مسرحية من فصل واحد

بثلاثة مشاهد

الهميان*

«المشهد الأول»

حي في قرية. المطر ينهمر غزيراً. والساعة متأخرة من الليل وإلى جانب الطريق انكب رجل في أواسط العمر فوق إناء قد تحطم شظايا، وانكفاً ما فيه من لبن على الأرض، وكان الرجل يتأمل اللبن المسفوح بوجه كاسف حزين، وهو يحوّل ويرجع.

- الرجل: (وهو يشير بيديه كأنه مذهول) لا حول ولا قوة إلا بالله.. لا حول ولا قوة إلا بالله يارب، ما هذه المصائب التي تلاحقني من مكان إلى مكان؟ أكتب علي أن يظلّ النحس مواكباً لي حتى آخر العمر.. اللهم لا اعتراض لحكمك وإني راض بابتلائك.. ولكن ماذا أصنع الآن من أجل المرأة المريضة؟ من أين أحضر لها ما تتقوى به؟ ليس في جيبتي قرش واحد، شريت لها بجميع ما ادخرته اليوم هذا اللبن الذي انسفج على الأرض..

«تفتح فجأة نافذة صغيرة من أحد البيوت المطلة على الطريق ويبدو منها رجل وقور، سمع الجلبة في هذا الليل السّاكن، فأطلّ يستطلع الخبر.. فرأى الرجل على وضعه الغريب، وهو يغمغم بحسرة.»

الرجل: اللهم، قضاؤك لا يُردّ.. ساعد عبدك الفقير وهنيء له من الأمر رشداً

صاحب المنزل «من النافذة وقد استبان له الرجل»: ويحك أيها الرجل! ما بك؟ من أنت؟ وما هذه الضجة بعد منتصف الليل؟

الرجل «يتنبّه مذعوراً إلى الصّوت، فيرفع رأسه



باتجاهه»: من أنت؟

صاحب المنزل: أنا صاحب هذا البيت الذي أقلق راحة أصحابه.. الرجل: إني آسف أيها السيد الكريم لا تؤاخذني، سأنصرف في الحال «ينفض من إكبابته، ويهمّ بالانصراف» صاحب المنزل: ولكن ما بك يا أخي؟ ما قصتك؟ إن أمرك مريب، هل أصابك مكروه؟

الرجل: دع الآن مما أصابني، وادخل بيتك لتتعم بالراحة والهدوء، بعدما سببت لك ما سببت من الإزعاج.. صاحب المنزل: حقاً.. إن أمرك غريب أيها الرجل.. أخبرني يا أخا الإسلام ماذا جرى لك.. لعلني أصنع لك شيئاً

الرجل «وهو يتطلع إلى صاحب المنزل في نافذته» تصنع لي؟ ماذا تصنع لإنسان تعس يلازمه سوء الحظ أينما

سار؟

صاحب المنزل: أيها الرجل! لقد شغلت بالي، وأثرت فضولي، وإني أقسم عليك لتخبرني ما قصتك؟

الرجل: «يطرق ولا يجيب»

صاحب المنزل: إني نازل إليك..

«يخترق من النافذة، ثم يظهر بعد قليل أمام باب بيته»: تعال يا أخي.. كيف أطلقت الخروج في هذا الجو البارد المطر، لابد أن أمراً ذا بال حملك على ذلك، تفضل يا أخي..

«يتردد الرجل قليلاً، ولكن صاحب المنزل يسحبه



بقلم: د. وليد قصاب

من ذراعه، فيدخل»

دنانير كثيرة، وجواهر وفيرة تساوي ثلاثة آلاف دينار أو أكثر..

«يتوقف الرجل عن الكلام»

صاحب المنزل «مستحشاً وقد بدأ العجب يأخذ منه»: «هيه.. ثم ماذا أيها الرجل؟

الرجل: فلما كنت في بعض الطريق نزلت لأقضي حاجة من حاجاتي فأنحل الحزام الذي كنت أربط به الهيئان إلى وسطي وسقط مني من غير أن أشعر به، ولم أتنبه إلى سقوطه إلا بعد أن قطعت بنا القافلة مسافة بعيدة جداً.

صاحب المنزل «وهو ما يزال في دهشته»: «أكمل أيها الرجل.. ثم ماذا؟

الرجل: لم أبال بثلاثة آلاف الدينار التي ضاعت مني على ضخامة هذا المبلغ وعظمته لأنني كنت موسراً وعندي من ذلك الكثير، ولم أفكر في الرجوع للبحث عن الهيئان خشية أن أتأخر في الطريق فيفوتني الحج.

صاحب المنزل «في استغراق ودهشة»: «هيئان فيه ثلاثة آلاف دينار؟ إن ذا والله من العجب.

الرجل: أجل ياسيدي، لم أبال بهذا الهيئان يومذاك، فقد كان عندي مال كثير وتجارة عريضة.. استدنت بعض المال من بعض رفقائي في الرحلة، فقضيت حجي وعدت إلى بلدي.. وأمر الهيئان أهون الأمور عندي.

صاحب المنزل: أهون الأمور! عجباً.. تقول كان فيه ثروة تقدر بثلاثة آلاف دينار؟

الرجل: نعم، كانك لا تصدقني.. كانك لا تصدق أن هذا الرجل البائس الذي رأيته يبكي منذ لحظات على إناء لبن انكفأ منه كان يملك في يوم من الأيام مثل هذه الثروة.

صاحب المنزل «في استغراقه»: «أنت صاحب الهيئان إذن؟

الرجل: أجل يا أخي.. وإنك لمعذور إذ لم تصدق

صاحب المنزل: وما صفة هذا الهيئان؟ هل تتذكر؟..

الرجل «باستغراب»: «نعم، مازلت أتذكر.. كان هميئان من ديباج أسود..

صاحب المنزل «يصيح بدهشة»: «هميان «من ديباج أسود»؟ يا إلهي..

الرجل: عجباً لك يا أخي.. مازلت تأبى أن تصدقني

صاحب المنزل: أبداً.. أبداً.. ولكنني مستغرب من أمر هذا الهيئان.. والآن قل لي ماذا حصل لك بعد ذلك؟

الرجل: تتابع علي بعد عودتي إلى بلدي سنوات نحس، كسدت التجارة، وتلاحقت الخسارة، ورحت أفقد ثروتني شيئاً فشيئاً وكنت كلما عضتني الشدة في بلدة تحولت إلى أخرى لعلها تكون أكثر بركة وخيراً.. ولكن من غير فائدة، فقد الله لا مهرب منه، وهو

«المشهد الثاني»

«صاحب المنزل والرجل في غرفة واسعة ذات فرش وثير توشي بيسار الحال، وقد جلس الرجلان قبالة بعضهما بعضاً»
صاحب المنزل: أهلاً بك يا أخا الإسلام.. أرجو أن يكون روعك قد هدأ..

الرجل «على استحياء»: أشكرك أيها الرجل الطيب.. وأعتذر إليك مرة أخرى عن كل ما أحدثته لك من إقلاق في هذا الليل..

صاحب المنزل: لا تقل هذا يا رجل.. الناس للناس.. والآن أرح نفسك، وانفض عنها بعض ما يقلقك من الكرب..

الرجل: «وقد انشرح صدره بحفاوة صاحبه» أشكر يا سيدي، والآن دعني أنصرف فقد تركت ورائي امرأة مريضة تنتظر عودتي على أحر من الجمر..

صاحب المنزل «بدهشة»: امرأة مريضة؟

الرجل: نعم، يا سيدي، إنها زوجي، خرجت ألتمس لها شيئاً تتبلع به بعد أن نفذ ما عندنا.

صاحب المنزل «مقاطعاً»: ها.. وماذا حصل؟

الرجل: خرجت بدانق ونصف، ما عندي غيرهما ألتمس لها شيئاً من لبن بعد أن ساءت حالها واحتاجت إلى الغذاء.. ورحت أخبط في الظلمة والمطر حتى وافيت بائعاً أشفق علي، وأعطاني بتلك القطع بعضاً من اللبن.. وأعارني إناءً من الفخار جعلت ذلك فيه، ورحت أنطلق نحو زوجتي والدنيا لا تكاد تسعني من الفرحة.. وما إن وصلت إلى قرب منزلك حتى انزلقت قدمي ووقعت على الأرض، فانكسر الإناء.. وانكفأ جميع ما فيه..

صاحب المنزل: ما أعجب الدنيا حقاً.. أكل هذا الحزن الذي يطل من عينيك بسبب بعض اللبن؟

الرجل: أجل يا سيدي، بعض اللبن أحمله لامرأة مريضة هي في أمس الحاجة إليه، فقد أصابها الضر والجوع.. وأنا لا أملك من النقود إلا ما شريت به هذا اللبن، بل أنا الآن مدين للبائع بثمان الإناء الذي انكسر..

صاحب المنزل: حسناً يا أخي.. هوّن عليك.. سيحدث الله من بعد عسر يسراً.. والآن قل لي.. كانك غريب عن هذه القرية؟

الرجل: أجل ياسيدي، أنا غريب عنها.. لقد تركت بلدة سوء بعد عام نحس تتابع علي المحن فيه..

صاحب المنزل: عام نحس!..

الرجل: نعم والله، لقد كنت امرأة موسراً، كنت تاجراً من التجار الكبار، ذا أموال كثيرة، وبضاعة عظيمة، فقصدت في بعض الأعوام إلي الحج وزيارة النبي ﷺ، وكان معي في رحلتي تلك هميان فيه

يلاحقني من مكان إلى مكان.. وأخيراً صرت إلى هذه القرية.. وقد ساءت أحوالنا كثيراً، مرضت زوجي مرضاً شديداً، ولم أعد أملك من حطام الدنيا شيئاً إلا دانقاً أو دانقين أكسبهما في اليوم الواحد أحياناً.

صاحب المنزل «مبتسماً»: والهميان.. أمازلت تفكر فيه؟
الرجل: لم أعد أفكر إلا في مرض امرأتي.. وأدعو الله لها بالشفاء.. والآن أستودعك الله يا سيدي.. لقد أزعجتك بصحبي في الليل، ثم بالحديث عن همومي وأحزاني «يتحرك للنهوض»

صاحب المنزل «يوقفه»: انتظرني قليلاً أيها الرجل
«ينسل إلى داخل المنزل تاركاً الرجل وحده مطرقاً بحزن، ثم يعود بعد لحظات حاملاً بيده صرة»: خذ هذا يا أخي فتدبر به نفسك..

الرجل: ما هذا؟

صاحب المنزل: إنه بعض من دين قديم.

الرجل «باستغراب»: دين؟

صاحب المنزل: أعني أنه دين تردده عندما تتيسر أمورك.. خذ يا رجل، ولا تتردد

الرجل: «يمد يده باستحياء»: شكر الله لك.. وأكثر من أمثالك..
صاحب المنزل: لا تشكرني يا رجل.. والآن هيا بنا نحضر امرأتك إلى هنا لتعنى بها النساء، فهن أخبر بشؤون بعضهن.
«يخرج الرجلان لإحضار المرأة المريضة»

«المشهد الثالث»

الرجل وصاحب المنزل في الغرفة نفسها بعد مرور ثلاث سنوات على تلك الحادثة..

صاحب المنزل: والآن يا أخي.. نحن صديقان، منذ ثلاث سنوات.. وأنت اليوم تاجر كبير كما كنت في صدر حياتك.. ولت أيام الشدة وفرج الله عنك.. فأجري الخير في يدك.. وقد رأيت أنه آن الأوان لتحدث في الدين القديم..

الرجل «مستغرباً»: الدين القديم؟.. ماذا تعني؟

صاحب المنزل: عد بالذاكرة يا أخي إلى أيام زمان.. وحاول أن تسترجع بعض الأحداث.

الرجل: أي أحداث تعني؟

صاحب المنزل: الهميان..

الرجل: الهميان!

صاحب المنزل: أجل.. كنت في رحلة إلى الحج، وكان معك هميان فيه دنائيرك وجواهرك الثمينة.. أليس كذلك؟

الرجل «في حالة استغراب»: بلى..

صاحب المنزل: وكان الهميان من ديباح أسود.. أليس كذلك؟

الرجل: بلى.. بلى.. ولكن.

صاحب المنزل «مقاطعاً»: ضاع منك الهميان في تلك الرحلة؟

الرجل: أجل.. أجل.. ولكن مالنا وهذا الحديث.. وما علاقته بدين سويناه منذ مدة؟

صاحب المنزل: الهميان دين لم نُسوّه.

الرجل: الهميان.. الهميان.. إنك لا تفتأ تتحدث عنه بين الحين والآخر.

صاحب المنزل: كان من ديباح أسود

الرجل: ذلك عهد مضى.. ما الذي أذكرك به الآن؟

صاحب المنزل: «يمد يده إلى صدره فيخرج شيئاً»: أنا لم أنسه يوماً، خذ هذا وانظر إليه، أليس هو هميانك القديم المفقود؟..

الرجل «يتأمل مذهولاً في هميان دفعه إليه صاحب المنزل»: بلى والله! إنه هو.. أهدتني أمي ذات يوم، وهذا أول حرفة من اسمي عليه.. يا إلهي.. أهذا معقول؟ أليكون هذا همياني الذي فقدته منذ سنين؟

صاحب المنزل: إنه هميانك يا أخي.. عثرت عليه منذ سنوات بعيدة، ولم أقصر في البحث عن صاحبه.. ولكن من غير جدوى.. فاحتفظت بقسم مما فيه عندي، واستثمرت القسم الآخر في التجارة حتى ربا ونما وصار ببركة الله ثروة طائلة..

الرجل «غير مصدق»: ماذا تقول؟

صاحب المنزل: حتى كانت تلك الليلة التي التقينا فيها.. وحدثتني ما حدثتني من أمر الهميان وصفته فعرفت أنه هميانك، وعرفت أنك الرجل الذي أبحث عنه منذ سنين كي أدفع إليه حقه..

الرجل «وهو مأخوذ من الدهشة»: ولماذا لم تحدثني بذلك عندما التقينا منذ ثلاث سنين؟

صاحب المنزل: كدت أفعل.. بل هممت أن أدفع إليك مالك وقد رأيت ما رأيت من سوء حالك ولكني خشيت أن تقتلك الفرحة الزائدة وأنت في هذا الكرب، كما خشيت أن يكون سوء الطالع ما يزال ملازماً لك، فيذهب المال بذكاء.. فآثرت أن أدفع إليك شيئاً وراء شيء حتى عرفت أن وجه الدهر بدأ يبتسم لك، وأن فرج الله قد عاد يغمرك من جديد.. والآن يا أخي! هذا هميانك بارك الله لك فيه.. ولك في تجارتني حظ كبير أقسمه لك..

الرجل «مذهولاً»: اللهم لك الحمد.. أهذا معقول؟

صاحب المنزل: كل شيء معقول.. أحمد الله أن ردّ عليك ما ضاع منك، وأحمد الله أن أعانني على حفظ الحق وردّه إلى صاحبه..

«هنا»

الهميان: كيس للنقفة يُشد في الوسط

■ الإمام أبو الفرج جمال الدين بن علي بن محمد بن جعفر الجوزي البغدادي المولود سنة ٥٠٨ هـ، والمتوفي سنة ٥٩٧ هـ (١١١٤ - ١٢٠١ م) من أئمة حضارتنا وأعلامها المشهورين.

- والجوزي أو ابن الجوزي عربي قرشي تيمي بكري يتصل نسبه بأبي بكر الصديق رضي الله عنه.. وقد وُلد ببغداد وعاش بها وظهر نبوغه مبكراً (١) وهو من المكثرين في التأليف، وقد صنف في فنون كثيرة وقد حسب عمره وقسم ما ألفه عليه منذ وُلد فكان ماخص كل يوم تسع كراريس (٢) وأظنهم عنوانا بالكراريس ما يعرف في عصرنا بالورقات أو الصفحات.

فهو - بهذا - تال للطبري وابن حزم.. وربما فاق

ابن تيمية وابن القيم في كثرة ما ألف.

وقد برز ابن الجوزي في علوم كثيرة تفرد بها،

وجمع من المصنفات الكبيرة والصغيرة نحو

من ثلاثمائة مصنف، وكتب بيده فيما قيل -

نحو من مائتي مصنف.

وقد أخذ الفقه عن أبي منصور الجواليقي،

وحفظ الوعظ، ووعظ وهو ابن عشرين سنة

أو دونها، وحضر مجلس وعظه ألوف كثيرة،

كان من بينهم الخلفاء والوزراء والأمراء والعلماء..

فضلاً عن العامة.. وقيل إن أقل من كانوا يحضرون في

مجلس وعظة عشرة آلاف مستمع.



بقلم الدكتور:

عبد الحليم عويس



أدب المناجاة ..

عند ابن الجوزي من خلال كتابه «المدهش»

وقد عرف ابن الجوزي بفن برز فيه وبرز فيه وهو فن الوعظ ويعتبر كتابه «المدهش» (٣) العمدة في هذا الباب، والذي يمثل فيه ابن الجوزي قمة النبوغ في هذا الفن، الذي يعدّ من الفنون الأساسية في بناء الإنسان المسلم وتكوين شخصيته، على أساس رباني لا يتجاوز الدنيا، وإنما يربطها بالآخرة ربطاً محكماً لا تنفك عنه، تماماً مثلما ترتبط القنطرة بالطريق، وترتبط الغاية بالوسيلة.

وقد ساعدت الأدوات الثقافية الكثيرة التي يملكها ابن الجوزي فن الوعظ عنده على البلوغ للغاية، والصعود إلى قمة سامقة، قلما يطاوله فيها واعظ من الواعظين..

فعلمه بالحديث، وموهبته الشعرية، وقدرته الأدبية، وعلمه بالتاريخ، وثروته اللغوية، وإلمامه بالجوانب النفسية والاجتماعية المؤثرة في الإنسان،

.. كل هذه المواهب جعلته ينجح في فنّ الوعظ.. وينجح كعالم مخلص يحسن تربية الأمة تربية رفيعة المستوى، جامعة بين الدنيا والآخرة.

وكان تفرد ابن الجوزي بفنّ الوعظ تفرداً لم يعرف له مثيل، فلم يسبق إليه، ولم يلحق شأوه فيه، وفي طريقتة وشكله، وفي فصاحته وبلاغته وعذوبته، وحلاوة ترصيعه ونفوذ وعظه، وغوصه على المعاني البديعية، وتقريبه الأشياء الغريبة فيما يشاهد من الأمور الحسية، بعبارة سريعة الفهم، بحيث يجمع المعاني الكبيرة في الكلمة اليسيرة (٤).

□□□

وكتاب «المدهش» - الذي ندرسه في هذه الصفحات - دليل كبير على تفرد ابن الجوزي في هذا الفن العظيم.. فن الوعظ..

■ كتاب المدهش:

ولقد أطلق أبو الفرج على كتابه اسم «المدهش»، وهو محق في ذلك، فهو آية من آيات الله في الوصول إلى لبّ المعنى، بأدق لفظ وأبلغه وأوجزه، وهو حافل بالمعنويات الدالة على سعة علم الإمام أبي الفرج الجوزي.. إن هذا الكتاب الذي بلغت صفحاته أكثر من خمسين

وخمسمائة صفحة من القطع الكبير، بتحقيق الدكتور مراد قباني قد انقسم إلى قسمين بارزين:

● أولهما: الأبواب الأربعة الأولى، التي تعالج قضايا وثيقة الصلة بالواعظ والوعظ، لكنها ليست مباشرة في فن الوعظ، وفيها حديث عن علوم القرآن الكريم، وأبواب منتخبة من الوجوه والنظائر في المصطلحات والأدوات اللغوية، وباب في تصريف الفقه وموافقة القرآن لها.

وكلام في علوم الحديث، وفضل رسول الله محمد ﷺ، وذكر أزواجه وأولاده ومواليه ومؤذنيه، إلى آخره..

وثمة كلام في أشياء متفرقة نادرة وطريفة.. والباب الرابع منها خصه لذكر عيون التواريخ والتعريف بالأقاليم وقصص الأنبياء - ببلاغة وجيزة - حتى انتهى إلى سيرة نبينا محمد عليه الصلاة والسلام..

● أما القسم الثاني؛ وهو جوهر الكتاب، فهو القسم الخاص بالمواعظ، وهو يتكون من مائة فصل.. أولها الفصل الخاص بشرح قوله تعالى ﴿هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ﴾ وآخرها الفصل الخاص بموعظة أولها: يا من أنفاسه محفوظة.. وهو الفصل المائة.. ثم أنهى ابن الجوزي كتابه بخاتمة في ثلاثة فصول أو بتعبير آخر بثلاث مواعظ أولها: «الموت مقاتل يقصد المقاتل فما ينفعك أن تقاتل» وثانيتها: موعظة أولها: «أين الذين سلبوا؟ سلبوا المال ما غلبوا... غلبوا.. عمروا ديارهم فلما تمت خربوا» وثالثتها: «عباد الله إنما الأيام طرق الجد، والساعات ركائب المجد»..

ولم يكن منهج الوعظ وما يوجبه من استحضار للآخرة والموت واستعلاء على الدنيا واستجاشة للعواطف العلوية الموصولة بخالق الكون.. لم يكن هذا المنهج بعيداً عن أية صفحة من صفحات الكتاب، حتى ما كان منها خاصاً بقصص الأنبياء أو متعلقاً بالتعريف بجانب من جوانب القرآن الكريم أو السنة النبوية الشريفة.. إن كتابه «المدهش» كله صفحة مناجاة لله سبحانه وتعالى، وهو كله قنوت ودعاء وشوق إلى ما عند الله.. ورغبة فيما فوق هذه الدنيا - وزهد في الدنيا..

عندما يتحدث ابن الجوزي في قصة الخضر عليه السلام يقول: لما علا شرف الكليم بالتكليم كل شرف..

قال له قومه: أيّ الناس أعلم؟ فقال: أنا، ولم يقل: فيما أعلم، فابتلي فيما أخبر به وأعلم.. فقام بين يدي الخضر، كما يقوم بين يدي السليم الأعم.. فابتدأ بسؤال: (هل أتبعك؟) فتلّقه برد: (لن)... وكم أن موسى من لن.. - أمر قومه بالإيمان فقالوا: «لن نؤمن»... وقعوا في التيه فقالوا: «لن نصبر» ندبوا للجهاد فقالوا «لن ندخلها» ... طرق باب (أرني) فردده حاجب (لن) (من لن تراني) ... دنا إلى الخضر للتعلّم فلغظه بلفظ (لن) ثم زاده من زاد الرد بكف (وكيف تصبر) (٥)!!

● وفي حديثه عن قصة أهل الكهف (٦) يقول:

كان رقم (كتب في قلوبهم الإيمان) قد علا على كهف قلوب أهل الكهف، فلما نصب ملكهم شرك الشرك، بان لهم خيط الفخ ففروا، وخرجوا من ضيق حصر الحبس إلى الفضاء فضاء لهم، فما راعهم في الطريق إلا راع وافقهم، فرافقهم كلبه، فأخذوا في ضربه، لكنهم ليسوا من ضربه، فصاح لسلط حاله: لا تطردوني لمبايتتي جنسكم فإن معبودكم ليس من جنسكم، أنا في قبضة إثاركم أسير.. أسير إن سرتهم، وأحرس إن نمتهم، فلما دخلوا دار ضيافة العزلة، اضطجعوا على راحة الراحة من أرباب الكفر، فغلب النوم القوم (ثلاثمائة سنين وازدادوا تسعا)

ثم يختتم كلامه عن أهل الكهف بقوله: «ليس العجب من نائم لم يعرف قدر ما مرّ من يومه، وإنما العجب من نائم في يقظة عمره»

أما والله لو عرف الأنام

لما خلقوا لما غفلوا وناموا

لقد خلقوا لما لو أبصرته

عيون قلوبهم ساحوا وهاموا

مات ثم قبر ثم حشر

وتوبى وأهوال عظام

ليوم الحشر قد خلقت رجال

فصلوا من مخافته وصاموا

ونحن إذا أمرنا أو نهينا

كأهل الكهف أيقاظ نيام (٧)

ومن هذين النموذجين نرى صدق ما ذكرناه من أن كتاب المدهش كله إنما هو وقفة دعاء وقنوت، توجه بها ابن الجوزي إلى الله سبحانه وتعالى، وهو - في كل سطره وما بين سطره - سباحات فكر، وصلوات واستغفار وأناة، وصور من الخشوع والخضوع، النابعة من قلب يحترق شوقاً، ويتفاعل إيماناً، بكل ما تحمله معاني الشوق إلى الله، ومعاني الإيمان العلوي الخالص.. وهو في النهاية نموذج أدبي شعري ونثري رفيع، يقدم صورة من صور تألق الوعظ بعمامة في تراثنا الأدبي الإسلامي.

إن عظمة أسلافنا الذين صنعوا حضارتنا كان في هذا المنهج الذي يمزج بين رهينة الليل وفروسية النهار، ويأخذ من عبوديته الوقود لمعاملاته، ومن استحضار الآخرة الحضور الأزكى والأعلى والأقوى في الدنيا..

لقد كانوا علماء يوجهون علمهم لعمار الدنيا باسم الله، وتحت راية عبوديته، ولم يكن علم الإسلام، ولا علم الدنيا ترفاً أو فكراً محضاً موجهاً للاستعلاء، أو المنفعة الشخصية أو الوطنية أو القومية.. ولقد آتاهم الله بهذا المنهج الشمولية، والفقه الصحيح، والعلم الواسع.. كما بارك لهم في عملهم، وأعطاهم قيادة الحضارة البشرية.. وما سقط العلم الإسلامي إلا يوم أن وجهه بعضهم للدنيا وقطعوه عن الآخرة.. ووجهه آخرون - بزعمهم - للآخرة وقطعوه عن الدنيا.. مع أنهما في الإسلام متلازمان، تلازم الروح والجسد.



فإذا ما انتقلنا إلى القسم الثاني الذي يتكون من مائة فصل، والذي بسطه المؤلف في أكثر من أربع مائة صفحة يتجلى لنا ابن الجوزي إماماً في أدب المناجاة والابتهالات..

ففي وقفته عند قوله تعالى «هو الأول والآخر» وهذا هو عنوان الفصل الأول من القسم الثاني عنده.. يتوجه ابن الجوزي إلى الذات العلية بهذه الابتهالات الفريدة... (٨) «سبحان من أقام من كل موجود دليلاً على عزّته، ونصب علم الهدى على باب محبته.. الأكوان كلها تنطق

بالدليل على وحدانيته، وكل موافق ومخالف يمشي تحت مشيئته، إن رفعت بصر الفكر ترى دائرة الفلك في قبضته، وتبصر شمس النهار وبدر الدجى يجريان في بحر قدرته، والكواكب قد اصطفت كالمواكب على مناكب تسخير سطوته، فمنها رجوم للشياطين ترميهم فترميهم عن حمى حمايته، ومنها سطور في المهامه يقرأها المسافر في سفر سفرته. وإن خففت البصر رأيت الأرض ممسكة بحكمة حكمته.. كل قطر منها محروس بأطواره عن حركته، فإذا ضجت عطاشها ثار السحاب من بركة بركته.

«ونفخ في صور الرعد لإحياء صور النبات من حضرته، فيبدو نور النور يهتز طربا بخزامي رحمته» ومنها قوله أيضاً: (٩)

«نظر بعين الاختيار إلى آدم، فحظى بسجود ملائكته، وإلى ابنه شيث فأقامه في منزلته. وإلى إدريس فاحتال بالهامه على جنته، وإلى نوح فنجا من الغرق بسفينته، وإلى هود فعاد على عاد شؤم مخالفته، وإلى صالح فتمخضت صخرة بناقته، وإلى إبراهيم فتبختر في حلة خلته، وإلى إسماعيل فأعان الخليل في بناء كعبته، وإلى لوط فنجاه وأهله من عشيرته، وإلى شعيب فأعطاه الفصاحة في خطبته، وإلى يعقوب فرد حبيبه مع حبيبته، وإلى يوسف فأراه البرهان في همته».

● وفي أدب المناجاة في الحج يبدع ابن الجوزي، ويستعرض منازل الحج ومراحلها بأدبه الرفيع، الذي يلبس ثوب المناجاة، معتمداً على الشعر والنثر معاً:

لله درمني وما جمعت
وبكا الأحبة ليلة النفر
ثم اغتدوا فرقا هنا وهنا
يتألاحظون بأعين الذكر
ما للمضاجع لا تلائمني
وكان قلبي ليس في صدري (١٠).

● حج جعفر الصادق فأراد أن يلبي فتغير وجهه، فقيل: مالك يا ابن رسول الله؟ فقال: أريد أن ألبى فأخاف

أن أسمع غير الجواب.

● وقف مطرف وبكر، فقال مطرف: اللهم لا تردهم من أجلي، وقال بكر: ما أشرفه من مقام لولا أنني فهيم!! وقام الفضيل بعرفة، فشغله البكاء عن الدعاء، فلما كادت الشمس تغرب قال: واسوأ تاه منك وإن عفوت!!

● وفي الفصل الخامس يحدث نفسه ويناجي ربه (١١)، فيقول:

ما حظى الدينار بنقش اسم الملك حتى صبرت سبيكته
على التردد إلى النار، فنفث عنها كل كدر، ثم صبرت على تقطيعها دنانير، ثم على ضربها على السكة، فحينئذ ظهر عليها رقم النقش:

«كتب في قلوبهم الإيمان»

لا تطردني فليس لي عنك غنى
هذا نفسي إذا أردت الثمنا

■ من طلب الأنفس هجر الألد. من اهتم بالجواهر نسي العرض، يا صفراء يا بيضاء غري غيري (يقصد الدنيا).. من أجل هواكم عشقت العشقا

قلبي كلف ودمعتي ما ترقى
في حبكم يهون ما قد ألقى
ما يحصل بالنعيم من لا يشقى

● وفي الفصل السادس:

أنا المقر على نفسي بالخيانة، أنا الشاهد عليها بالجناية
أعف عني وأقلني عثرتي
يا عتادي لملامات الزمن
لا تعاقبني فقد عاقبني
ندم أقلق روحي في البسودن
لا تطير وسنا عن مقلتي
أنت أهديت لها حلو الوسن (١٢).

● وفي ختام الفصل الثامن يتقلب في رجائه ومناجاته بين طرائف الصالحين:
يا منفدا ماء الجفون

وكننت أنفقه عليه
إن لم تكن عيني فأننت
أعز من نظرت إليه

كانوا إذا ضيقَ الخوفُ عليهم الخناقَ نفسوه بالرجاء، فكان أبو سليمان يقول: إلهي إن طالبتني بذنوبي طالبتك بكرمك، وإن أسكنتني النار بين أعدائك لأخبرنهم أنني كنت أحبك..

وكان يحيى بن معاذ يقول: إن قال لي يوم القيامة: عبدي ما عُركَ بي؟ قلت: إلهي: بركَ بي.. (١٣).

● وفي بعض ما ورد من روائع الفصل الثامن عشر يتخيل ابن الجوزي عتاب الله سبحانه وتعالى للإنسان.. فكانه كما يقول ابن الجوزي يقول له: يا مُختار الكون وما يعرف قدر نفسه، أما أسجدت الملائكة بالأمس لك؟ وجعلتهم اليوم في خدمتك، لمّا تكبرَ عليك إبليس، وقد عبدني سنين طويلة - طردته.

● ويقول ابن الجوزي في الموعظة الثانية والثلاثين:

لا بد والله من قلق وحرقة، إما في زاوية التعبد أو في هاوية الطرد، إما أن تحرق قلبك بنار الندم على التقصير والشوق إلى لقاء الحبيب، وإلا فنار جهنم أشد حراً..

شجاك الفراق فما تصنع
أصببر للبين أم تجزع
إذا كنت تبكي وهم جيبرة

فماذا تقول إذا ودعوا
القلق القلق يا من سلب قلبه، والبكاء البكاء يا من عظم ذنبه.

كان الشبلي يقول في مناجاته: ليت شعري ما اسمي عندك يا علام الغيوب، وما أنت صانع في ذنوبي يا غفار الذنوب؟ وبم تخطم عملي يا مقلب القلوب (١٤).

كان داود الطائي ينادي بالليل: همك عطّل كل الهموم، وحالف بيني وبين السهاد، وشوقي إلى النظر إليك حال بيني وبين اللذات، فأنا في سجنك أيها الكريم مطلوب (١٥).

- كان لقوم جارية فأخرجوها إلى الخناس فأقامت أياماً

تبكي، ثم بعثت إلى سادتها تقول: بحرمة الصحبة ردوني فقد ألفتكم.. يا هذا قف في الدياجي وامتد يد الدّل، وقل: قد كانت لي خدمة، فعرض تفريط أوجب البعد، فبحرمة قديم الوصل ردوني فقد ألفتكم (١٦).

□□□

- ويتألق فن المناجاة عند ابن الجوزي في غير موضع من فصوله الوعظية، وما نحن أولاً نراه في وعظيته الثانية والسبعين يقول لربه:

اللهم نور دنيانا بنور من توفيقك، واقطع أيامنا في الاتصال بك، وانظم شتاتنا في سلك طاعتك، فأنت أعلم بتلقيق المقترف، اللهم قو من أطفال التوبة بلبان الصبر، أرفق بمرضى الهوى في مارستان البلاء، افتح مسامع الأفهام لقبول ما ينفع، سلم سياراة الأفكار من قاطع الطريق، احرس طلائع المجاهدة من خديعة كمين، احفظ شجعان الغرائم من شر هزيمة، وقّع على قصص الإنابة بقلم العفو، لا تسلط جاهل الطبع على عالم القلب، لا تبدل نعيم عيش الروح بجحيم حر النفس، لا تمت حي العلم في حي الجهل، أخرجنا إلى نور اليقين من هذا الظلام، لا تجعلنا ممن رأى الصبح فنام، لا تؤاخذنا بقدر ذنوبنا، فإنك قلت: «ولا تنسوا الفضل بينكم» (١٧) وأعجبنا لمن عرفك ثم أحب غيرك، ولمن سمع مناديك ثم تأخر عنك.

حرام علي العيش مادمت غضباناً
ومالم يعد عني رضاك كما كانا
فأحسن فإني قد أسأت ولم تزل

تعوّدني عند الإساءة غفرانا
إلهي، لا تعذب نفساً قد عذّبها الخوف منك، ولا تخرس لساناً كل ما يروي عنك، ولا تقذّ بصراً طالما يبكي لك، ولا تخب رجاء هو منوط بك، إلهي، ضع في ضعفي قوة من منك، ودع في كفي كفي عن غيرك. ارحم عبدة تترقرق على مافاتك منك، برّد كبدًا تحترق على بعدها عنك (١٩).

□□□

إنها مائة فصل في الابتهاال والتضرع والمناجاة دبجها قلم من أروع الأقلام التي أخرجتها حضارتنا الإسلامية عندما كان النبع صافياً، وكان الاتجاه صادقاً.. صادقاً مع

(٧) المدهش ١٢٢

(٨) المدهش ١٣٩

(٩) المدهش ١٣٩

(١٠) المدهش ١٤٧

(١١) المدهش في ١٥٨، ١٥٧

(١٢) المدهش ١٦٥

(١٣) المدهش ١٧٣

(١٤) المدهش ٢٠٨

(١٥) المدهش ٢٥٥

(١٦) المدهش ٢٦٤

(١٧) المدهش ص ٣٣٢ وجدير بالذكر أنه في ص ٢٧٤ يقول

ابن

الجوزي

رحمه الله:

إنما خلقت

الدينا

لتجوزها،

لالتحوزها،

ولتعبرها

للتعمرها

(الفصل

الخامس

والثلاثون)

ونحن لا

نقره على

هذا بل

الصحيح

عندنا (إنما

خلقت

الدينا

لتحوزها

وتجوزها

وتعمرها

وتعبرها)

فهذا هو

التصور

الإسلامي

للزهد!

(١٨)

المدهش

٢٦١

(١٩)

سورة

البقرة الآية ٢٣٧

(٢٠) المدهش ٤١٥، ٤١٤

الله.. وصادقا مع النفس.. وصادقا مع الكون والإنسان..

وهكذا قدم الإمام ابن الجوزي من خلال كتابه (المدهش)

نموذجاً للمسلم الرباني، وللأدب الإسلامي الذي يتألق في

الصعود بالإنسان إلى هذا المستوى الكوني الفسيح في

مناجاة الله..

- وإن كتاب المدهش - بكامله - قطعة أدبية (نثرية

وشعرية) رائعة، تمثل أسمى ما وصل إليه الإبداع

الإسلامي في أدب المناجاة.. وهو يمثل لوحة جمالية ذات

إيقاعات وألوان منسجمة ومتكاملة، وتخلو من أي شذوذ..

- ولقد أبرز لنا هذا الكتاب العظيم كيف تتألق روح

المسلم، وكيف تنسجم مع عقله ولسانه وقلمه ولغته

العربية البليغة..

- ومن خلال هذا الكتاب يدرك المسلم دوره ومكانته،

ويدرك أحقية الدين الحق الذي ينتسب إليه... ويرتفع من

خلال أدب ابن الجوزي - إلى مستوى دينه الرفيع.. بل

يندمج بكل كيانه في مناجاة واعية صادقة لله. مبدع

الكون، ومن يملك مفتح الغيب..

أوليس هذا أرفع شرف للإنسان... أن يخاطب الله،

ويناجيه، ويدعوه

.. كما يناجي الحبيب حبيبه، والعبد سيده: و«إذا سألك

عبادي عني فأني قريب، أجيب دعوة الداعي إذا دعان،

فليستجيبوا لي، وليؤمنوا بي، لعلهم يرشدون» (البقرة

١٨٦)..
- بلى: إنه أرفع شرف.. وأزكى مكان.. إنه المعراج إلى

الله بالروح والقلب والوجدان...،

■ الهوامش:

(١) انظر في ترجمته: وفيات الأعيان، وذيل الروضتين،

والبداية والنهاية، وابن الوردي، وتذكرة الحفاظ، وغيرها.

(٢) انظر ترجمته في «وفيات الأعيان» لابن خلكان.

(٣) ضبطه وحققه الدكتور مروان قباني، ونشرته دار الكتب

العلمية ببيروت، وقد اعتمدنا الطبعة الأولى الصادرة سنة ١٤٠١ هـ

(٤) مقدمة تلبيس إبليس نشر دار الكتب العلمية ببيروت

ط ١٤٠٣/٣/١ هـ

(٥) المدهش: الطبعة السابقة ص ١٠٧، ١٠٦

(٦) المدهش: الطبعة السابقة ص ١٢١